

مفهوم البنية العميقة بين جومسكي والدرس النحوي العربي

د. مرتضى جواد باقر
جامعة البصرة

عن هذا المفهوم وعن كونه واحدا من المنطلقات النظرية في الدرس النحوي العربي. وفي هذه الدراسات والمقالات نشعر أن هناك الكثير من التوسع في تعريف هذا المصطلح واستخدامه بمعنى غير معناه الأول. وهذا — فيما أظن — مُتأتٍ من غياب تحديد واضح لماهية المفهوم الذي نصلح عليه بالبنية العميقة — أو قد يكون ناتجا — حين نحسن الظن — عن تعريف لهذا المفهوم لعللاقة له بما اصطلح عليه بالبنية العميقة ضمن مدرسة القواعد التوليدية التحويلية. وفي كلا الحالتين فإن هذا يوجب — كما أرى — إيضاحا لهذا المفهوم وإجلاء الأمور لكي توضع الأشياء في مكانها والمناهج في مجالها المحدد.

ونقول بدءا إننا لسنا بصدد المقارنة بين منهجين للدرس اللغوي لنستخلص

1 - توطئة: تناقش هذه الدراسة مفهوم البنية العميقة — أحد الافتراضات النظرية الأساسية في مدرسة القواعد التوليدية التحويلية ووجود ما يكافؤه في الدرس النحوي العربي. إن هذا أمر تستنتجه بعض الدراسات التي قارنت بين المناهج اللغوية الحديثة ومنهج الدرس اللغوي العربي. لقد شاع استخدام هذا المصطلح — مصطلح البنية العميقة — في السنين الأخيرة، فنجد في الكثير من المقالات والأبحاث التي تهتم بدراسة لغة النص الأدبي في محاولتها تقويمه جماليا يستخدم بمعنى عام هو المقاصد الخفية لكاتب النص، أو المعنى الخفي للجملة أو البيت الشعري. ومن ناحية أخرى — وهو ما سنعنى به في هذه الدراسة — نجد العديد من المقالات والدراسات التي تنشر هنا وهناك تكتب

حكما بأفضلية واحد على آخر. بل أن هذه الدراسة - في جوهرها - دعوة إلى التآني في عقد المقابلات والمقارنات بين المناهج الفكرية قبل أن تتضح المفاهيم والمصطلحات التي تعقد حولها هذه المقابلات وقبل أن تتضح بشكل محدد المعالم أدوات المقابلة. فالأمر هنا يختلف عن الدراسات التي تفاضل بين رأيين ضمن منهج علمي واحد حول قضية معينة. إذ أن المنهجين اللذين نحن بصدددهما وليدا ظرفين مختلفين وحضارتين مختلفتين وزمانين مختلفين. وهذا الاختلاف يعني أول ما يعني اختلاف لغة خطابهما. وإذن فنحن أمام تفحص المشترك من المفاهيم في خطابين مختلفين لغة.

إن كلا من هذين المنهجين صدر عن إطار فكري يختلف كلية عن الثاني، وهذا يوجب علينا الحذر في إطلاق التعميمات وافترض المشتركات لمجرد أن يلوح لنا وجه تشابه. وكذلك فينبغي لنا أن نحذر من الوقوع في مزالق تصور وجود تكافؤ بين المفاهيم بسبب تشابه فيما نطلقه من مصطلحات. فنحن إذن مصدر هذه التسميات والمصطلحات. وهكذا فلا أقل من الحذر أن لا نقع أسرى أفعالنا. إن ما نحذر منه ليس بالأمر الهين ولا بالجديد

في المقارنات التي تعقد بين الآراء والمناهج الفكرية والعلمية التي تبتعد عن بعضها البعض جوا ومكانا وزمانا.

إذا لطلما أطلقت المسميات المألوفة والمأخوذة من المناهج العلمية المعروفة على مفاهيم المناهج العلمية الغربية حين نقلها وذلك من أجل تقريبها. والمشكلة تبدأ حين يأتي بعد ذلك من يقابل بين المنهجين ويبني أحكامه على تشابه مصطلحاتهما ويكون بهذا قد حكم على أحدهما وفقا لمفاهيم الثاني.

وفي هذه الدراسة سنحاول تناول مفهوم البنية العميقة بطريقة أخرى نتجنب فيها تلك المزالق. وسنبدا بتقديم تعريف محدد للبنية العميقة - ضمن منهج الدرس اللغوي الذي يعود إليه - وهو منهج القواعد التوليدية التحويلية - وضمن كتابات رائده نعوم جومسكي على وجه الخصوص. ثم نتناول بعدئذ على ضوء هذا التحديد وجود مفهوم يقاربه أو يماثله في الدرس النحوي العربي. وسنعرض ضمن هذا القسم إلى بعض الدراسات التي ناقشت - من بين أوجه التشابه بين منهج الدرس اللغوي العربي والدرس اللغوي المعاصر - مسألة البنية العميقة. فنحاول استجلاء أبعاد هذه المقارنة وهذا التقابل وذلك بالنظر في

صحة ودقة الملاحظات التي طرحت في تلك الدراسات.

2 - البنية العميقة في منهج مدرسة القواعد التوليدية :

طرح مصطلح البنية العميقة بشكل واضح في كتاب جومسكي «جوانب من نظرية النحو» Aspects of the Theory of Syntax المنشور عام 1965. غير أن هذا لا يعني أنه جزء من التغييرات التي طرأت على المنهج - سواء في أسس التحليل القواعدي أو التصور الشكلي لهيئة النظام السوابب اتباعه لوصف الجزء النحوي من الظاهرة اللغوية - منذ أن قدم هذا المنهج في صورته الأولى عام 1957 في كتاب جومسكي «البنى النحوية» Syntactic Structures⁽²⁾. إن مفهوم البنية العميقة - كما سيتبين لنا بعد حين - هو أحد الأجزاء النظرية الأساسية في المنهج الذي قدمه جومسكي وعرف باسم مدرسة القواعد التوليدية التحويلية. فهو من نتائج نظرة هذه المدرسة إلى نظام القواعد. وإذن فلمعرفة مفهوم البنية العميقة وبناء تصور محدد لها يحسن بنا تقديم البناء النظري الذي تكون جزءا منه.

إن كتابة قواعد اللغة ما - وفقا لهذه المدرسة - ترقى إلى تكون نظرية لغوية، أو على الأصح افتراضا عن نظام ذهني

يملكه المتكلمون الأصليون لتلك اللغة. وهذا يعني أن القواعد التي نكتبها تتحدد صحتها ودقتها بمدى مطابقتها لواقع الحال - أي لذلك النظام الذهني⁽³⁾. ولما كانت المادة اللغوية التي نستند إليها في كتابة القواعد هي مادة محددة - مهما كبرت - فإن إحدى سمات هذه القواعد التي نكتبها ستكون بالضرورة قدرتها على التنبؤ بكل المادة الممكنة نظريا - وهذه مادة غير محدودة ولا متناهية. إن تنبؤ القواعد هو تنبؤ بالحكم على أية جملة في لغة ما بالصحة أو عدمها. أي أن على القواعد التي نكتبها عن نظام لغوي معين أن تكون قادرة على إعطاء كل جملة من جمل تلك اللغة وصفا بنيويا وأن تصل تلك البنية بالأصوات التي تتألف منها الجملة، وكذلك فعليها أن تسبغ تأويلا دلاليا على ذلك الوصف البنيوي للجملة وهذا - بتعبير آخر - يكون بمثابة توليد لجمال اللغة التي نكتب قواعدها.

إن هذه السمة - سمة الحكم على الأبنية اللغوية بالصحة وعدمها - قد تجلب إلى الأذهان قضية طالما نوقشت وهذه قضية شرعية (أو عدم شرعية) الحكم بصحة مادة لغوية معينة استنادا إلى نموذج لغوي قياسي في تلك اللغة، من كون المادة فصيحة وسالمة من الأخطاء

وغير ذلك. وهي أحكام نصلها بعرض المادة اللغوية على مقياس نختاره يمثل الصحة في النظام اللغوي. وهذا ما يؤدي بنا إلى أن نكون قيمين على النظام اللغوي — أي على النظم الذهنية التي يمتلكها المتكلمون الأصليون لهذه اللغة أو تلك. ولسنا هنا في معرض تبين بعد هذا الموقف الأخير عن العلم وأسس. إننا نريد هنا أن نذكر أن القواعد التي نكتبها والتي نريد منها أن تحكم على النتاج اللغوي بالصحة أو عدمها لا يعني اتسامها بالمعيارية — كما يتصور البعض — بل إن هذه سمة يفترض وجودها في كل وصف لنظام من الأنظمة وهي أن يفرق ما بين ما ينتمي لهذا النظام وما لا ينتمي له.

غير أنه تثار هنا مشكلة التوفيق بين ما قلنا وبين المادة اللغوية الفعلية وهي كلام المتكلمين. ففي هذه المادة الكثير من الظواهر التي تقع خارج نطاق النظام اللغوي، وتخضع إلى عوامل ومؤثرات لا علاقة لها بذلك النظام، بل قد تؤدي إلى التمويه على صفاته الأساسية. فقد تقع في كلام المتكلمين أخطاء بسبب العديد من الحالات التي تعرض للمتكلم، أو بسبب النسيان، أو غير ذلك. إن تأثير هذه العوامل يجعل من الكلام الحرفي ممثلاً

غير دقيق للمعرفة اللغوية وللنظام اللغوي الذي تتأسس عليه هذه المعرفة. فعلى المتصدي لدراسة هذا النظام ووصفه أن ينقي المادة اللغوية بحيث يبعد عنها كل هذه العوامل التي لا تمت للنظام بصلة. إن اللغوي بهذا العمل يستخلص وضعاً مثالياً للمادة اللغوية. وقد يقول قائل إن في هذا بعداً عن الواقع اللغوي غير أن الرد على ذلك يسير. ففي سبيل الوصول إلى فهم أدق لطبيعة النظام اللغوي يتوجب إزالة ما يعلق بالمادة اللغوية من شوائب. فإذا ما اعتمدنا على هذه الصورة المثالية للمادة اللغوية: أي المتكلم / السامع المثالي للغة — فإن النظام الذي نضعه سيكون تمثيلاً لذلك النظام الذهني الذي يكمن وراء القابلية (الكفاية) اللغوية. والأمر الثاني الذي يجب الالتفات إليه هو فقر المادة اللغوية الذي أشرنا إليه. وعلى هذا فإنه لا يمكن الاعتماد على مجرد استقراءها في وضع هذا النظام بل يتحتم لجوء اللغوي إلى الاستبطان، أي استنتاج النظام واستنباطه. وهكذا فإن القواعد التي نكتبها هي بمثابة نظرية للغة ما من حيث أنها تؤلف نظاماً على أساسه يجري وصف كل المعطيات اللغوية، وينبني على هذه القدرة التمثيلية أن يقرر صحة أو

خطأ أي تعبير في اللغة الموصوفة.

في القواعد التي نكتبها لتمثل هذا النظام اللغوي الذهني هناك ثلاثة جوانب: الجانب الصوتي، والجانب الدلالي، والجانب النحوي. وقد حددت كتابات جومسكي العلاقة بين هذه الجوانب بشكل واضح. فالجانب النحوي هو الجانب الخلاق، أما الجانبان الآخران فهما تأويليان. يولد هذا النظام بنية نحوية (أو أكثر) لكل جملة من جمل اللغة تدرج فيها المفردات المعجمية - كل في مكانها في البنية الجمالية. وتكون مهمة الجانب الصوتي إخراج هذه الكلمات المتوالية في الجملة في صيغتها الصوتية النهائية. أما وظيفة الجانب الدلالي فهي إسباغ المعاني المختلفة على البنى الجمالية اعتماداً على البدالات المعجمية للمفردات التي تتألف منها الجملة، العلاقات البنيوية بين هذه المفردات في الجملة مما ينتج عنه التأويل الدلالي الكامل للجملة.

تستوقفنا هنا مسألة أساسية هي العلاقة بين هذه الجوانب الثلاثة للقواعد. إن العلاقة بين الجانب الصوتي (الفونولوجي) والجوانب الأخرى لا تكون مشكلة كبيرة. فعلى الرغم من الصلة والتأثير اللذين نجدتهما بين الجانب الصوتي والنحوي، لا نجد من يشك في

استقلال هذين الجانبين عن أحدهما الآخر. إنما تبدأ المشكلة في مسألة الصلة بين الجانب النحوي والدلالي.

يقرر جومسكي في كتاباته العديدة قديماً وحديثاً استقلال هذين الجانبين عن أحدهما الآخر. فالبنى الجمالية لا تأتي بشكلها الذي تظهر عليه بسبب المعاني التي تنتجها. وكذلك فليس للعمليات النحوية تلازم بتلك المعاني التي نفهمها من الجملة. إن البنى النحوية في اللغات البشرية تعكس بنى ذهنية تؤلف الملكة اللغوية لدى الإنسان وهي واحدة من البنى المعرفية التي يمتلكها الإنسان. إن هذه البنى تستخدم لأغراض التواصل ولكنها لا تعكس تلك الأغراض ولم تنتج عنها. ومن هذا نصل إلى أن شكل البنى النحوية لا تحدده الوظائف اللغوية بل إن شكلها جزء من التكوين المحدد للعقل البشري.⁽⁴⁾

إن هذا الموقف المبدئي لجومسكي هو أساس لأطروحته العامة ضمن هذه المدرسة فيما يخص استقلال النحو عن الدلالة. وهو كذلك وراء مركزية البنية اللغوية على أساس أنها الأمر الوحيد الذي يميز اللغة البشرية عن غيرها من الأنظمة. فالبنية اللغوية هي الخاصة المحددة للظاهرة اللغوية وليست الوظيفة

اللغوية.⁽⁵⁾ إذ يرى جومسكي أن ربط البنية اللغوية بالوظائف التي تؤديها اللغة أمر لا يصمد أمام الملاحظة الدقيقة. فاللغات البشرية تعتمد في العمليات النحوية على المراتب التركيبية، ولا تتم على أساس نسق العناصر في التركيب الجملي. أي أنها لا تأخذ بالطريق الأسر بل تتبع طريقا أكثر تعقيدا. ويضرب مثلا على ذلك في عملية تكوين الجملة الاستفهامية في العديد من اللغات البشرية التي تتم عن طريق تقديم الفعل الرئيس للجملة إلى بدايتها، بغض النظر عن ترتيب هذا الفعل في الجملة. يتم هذا بدلا من تقديم أول فعل في نسق الجملة إلى بدايتها مثلا. إن هذا يمثل مظهرا من مظاهر الاعتماد على البنية بدلا من الاعتماد على النسق السطحي.⁽⁶⁾ وليس هناك سبب وظيفي لتغليب هذا على ذاك. فالاعتماد على النسق (أي اختيار أول فعل في الجملة التقديمية إلى بدايتها) أقل تعقيدا من الناحية الهندسية البحتة من الاعتماد على البنية الجمليّة. والوظائف اللغوية يمكن أن تؤديها لغة تعتمد على النسق في تغييرات تراكيبها بنفس الكفاءة التي تؤديها بها لغة تعتمد على البنية في تغييرات تراكيبها. ومن هنا يمكن أن نخلص إلى عدم وجود التلازم بين شكل

اللغة البشرية ووظيفتها. فشكل اللغة البشرية - كما ذكرنا - تحدده مجموعة الخصائص التي تتسم بها الملكة اللغوية في الذهن البشري من حيث طبيعته. إن كل هذا يكمن وراء إصرار جومسكي - ومنذ بداية منهجه اللغوي - على استقلال البنية اللغوية عن الدلالة اللغوية - ومن هنا يجيء استقلال النحو عن الدلالة في النظرية اللغوية التي يطرحها - أي تصوره لقواعد اللغات البشرية وصفاتها العامة والخاصة - وبالتالي في منهج الدرس اللغوي الذي يقترحه. ولكن علينا أن نستدرك فنقول إننا سنعرض قريبا إلى آراء انطلقت ضمن هذه المدرسة لا تقر بهذا الانفصال بين النحو والدلالة غير أنها لم تكن لتعبر عن فكر جومسكي في يوم من الأيام. إن النقطتين اللتين تحدثنا عنهما - الصورة المثالية للمادة اللغوية واستقلال النحو عن الدلالة - مهمتان - فيما اعتقد - لإيضاح مفهوم البنية العميقة وتحديد معناه ضمن هذه المدرسة. فالقواعد - على رأي جومسكي - معينه بالصورة المثالية للجمل ولا تأخذ بنظر الاعتبار ما يعرض لها - من الاضطراب حين نطقها مثلا. وكذلك فالقواعد التي يصورها جومسكي كمجموعة من القوانين تولد جمل اللغة

كلها - تتألف من ثلاثة جوانب مستقلة هي الجانب النحوي والدلالي والصوتي كما أسلفنا.

ففي الجانب النحوي يمكن تصوير القواعد كقوانين تولد بنى نحوية لكل جملة صحيحة الشكل في اللغة ويتم التوليد عن طريق وصف كل عنصر في الجملة بالعناصر التي يتكون منها وهكذا - كأن تقول إن جملة «محمد في البيت» تتكون من عبارتين، عبارة إسمية وعبارة شبه جملة، وإن هذه تتكون من عنصرين هما حرف الجر وعبارة إسمية وهذه بدورها تتكون من عنصرين أصغر هما أداة التعريف والإسم وهكذا. (7) ومعنى الجملة، أو تأويلها الدلالي يعتمد على هذه البنية النحوية التي ولدتها تلك القوانين. ومن جانب آخر فإن كل واحد من العناصر المعجمية التي أدرجت في تلك البنية النحوية يحمل معه سماته الصوتية. وإذن فستكون لدينا صورة صوتية (أو تمثيل صوتي) للجملة غير أن هذه الصورة التي نرسمها للقواعد غير كفؤة إذ أنها لا تحسب حساب التغيرات التي تتعرض إليها بنية الجملة النحوية. والأدلة على هذا كثيرة. إذ نجد في كل لغة جملا عديدة تحتل تأويلين أو أكثر. وإذا كان تأويل الجملة الدلالي يعتمد على

بنيتها النحوية فلا بد أن يكون لتلك الجملة بنيتان مختلفتان يتأسس على كل واحدة منهما تأويل من التأويلين. لنأخذ مثلا جملة «محمد مساعدته مستحبة» والتي لها - كما يدرك القارئ - تأويلان في أحدهما «محمد» يعمل فاعلا لفعل المساعدة، أما الثاني ففيه «محمد» مفعول لفعل المساعدة. إن إعطاء تأويلين لهذه الجملة يستدعي أن يكون لها بنيتان نحويتان. وإلا من أين جاء هذان التأويلان؟ وعلام اعتمادا؟ وإذ أن الجملة على ما هي عليه، لها بنية ظاهرية واحدة توجب علينا القول أن لها بنية خفية وأخرى تمثل ما هي عليه في شكلها الذي تظهر عليه. وإذن، ففي حالة الجملة التي نحن بصدددها، نقول أن لها بنيتين خفيتين تعطي كل واحدة منهما تأويلا مختلفا.

ومن الناحية الأخرى فجمال اللغة البشرية فيها العديد من الأمثلة التي تستدعي الإقرار بأن لها بنية خفية سابقة ومختلفة عن بنيتها الظاهرة السطحية. وهذا الافتراض توجبه الانتظامات النحوية الموجودة في الجمل فيما لو أخذنا تلك الانتظامات بنظر الاعتبار. فالجمال التي تبدأ بأسماء الاستفهام نجد في بعضها أفعالا متعدية،

ولكن ليس لها مفاعيل ظاهرة بعدها، كحال الأفعال المتعدية. في حين لا يصح أن تأتي هذه الأفعال بدون مفاعيلها في سياقات نحوية أخرى. لنأخذ مثلاً.

أ. من قابل محمد ؟

ب. * قابل محمد

ج. قابل محمد زيدا

في هذا المثال نفسر خلل الجملة (ب) بعدم وجود مفعول يلي الفاعل قياساً على الجملة (ج) الصحيحة. ولكن إذا كان هذا هو الأمر فكيف نفسر صحة الجملة (أ) مع كونها بلا مفعول يلي الفاعل. هناك سبيلان لتفسير هذا التناقض الظاهري. فإما أن نفترض أننا أمام فعلين لهما لفظ واحد أحدهما لازم والآخر متعدٍ، أو أن نقول إن عنصر الاستفهام فيها بمثابة المفعول وإن مكانه الأصلي هو فيما يلي الفاعل وأنه قدم بعدئذ. أن الحل الأول يتناقض مع حكم متكلم العربية الأصيل وسليقته. وإذن فالحل الثاني هو الذي يمثل فك التناقض الظاهري الذي لحظناه.

إن هذه دلائل تقدمها قواعد اللغات البشرية على وجود مستويين مختلفين لبنية الجملة. وهكذا فإن كفاءة منهج الوصف الذي نضعه لقواعد اللغات البشرية تلزمنا إفتراض مستويين لبنية

الجملة في اللغة البشرية، وإفتراض أن المستوى الأول هو الذي يمثل البنية العميقة الباطنة للجملة بينما يمثل المستوى الثاني بنيتها السطحية.

ضمن هذه الصورة للوصف القواعدي (الجانب النحوي منه) يمكن تحديد البنية العميقة - بأنها بنية الجملة بعد أن تولد قوانين إعادة الكتابة تفريعاً شجرياً (دليلاً تركيبياً) يمثل بنية نحوية للجملة، وتدرج في العقد الأخيرة من هذا التفريع المفردات المعجمية.⁽⁸⁾ إن هذا التفريع المدرجة فيه المفردات المعجمية يمثل البنية العميقة للجملة. وتعمل على هذه البنية قوانين تحويل محددة لتنقلها إلى بنية أخرى بعد كل تحويل حتى تصل بها إلى بنية تشبه ما عليه الجملة المقصود توليدها ظاهرياً. هذه البنية النحوية الأخيرة يطلق عليها اسم البنية السطحية.⁽⁹⁾

ومن المهم تذكر أن بنية الجملة العميقة هي تركيب نحوي مجرد. وإنها ليست صورة دلالية للجملة أو بنية دلالية للجملة. فهذه بنية مستقلة عن بنيتها العميقة. والبنية العميقة ضمن هذا التصور للقواعد، تركيب نحوي يتألف من عناصر نحوية في حين أن البنية الدلالية للجملة يتكون من عناصر دلالية (معنوية) أولية وما يربط بينها من

علاقات دلالية. أما كيف يتم الربط بين البنية العميقة (النحوية) للجملة وبين بنيتها الدلالية فإن هذا كان موضع نقاش وبحث دائمين منذ بداية ظهور هذه المدرسة اللغوية وحتى الآن. وقد اتخذت مواقف عديدة من هذا الأمر سنعرض لبعضها الآن.

إن العلاقة بين النحو والدلالة أصبحت موضعاً لاختلاف وجهات النظر ضمن هذه المدرسة. فقد أثر في منتصف الستينات السؤال عما إذا كانت هناك بنية نحوية مستقلة عن معنى الجملة، أو بمعنى آخر إذا كان هناك مبرر للفصل بين نحو الجملة ودلالاتها. وقد وقف القائلون بعدم وجود الفرق بين نحو الجملة ودلالاتها موقف المخالف لوجهة نظر جومسكي التي عبر عنها منذ نشر أول كتبه وحتى الآن، ألا وهي القول باستقلال النحو عن الدلالة كما أسلفنا. وكما هو معروف للقارئ الكريم ولملتبعي تاريخ تطور الدرس اللغوي الحديث فقد أطلقت على هؤلاء المخالفين لآراء جومسكي تسمية «الدلالين التوليديين»، في حين أطلقت تسمية «الدلالين التأويلين» على جومسكي ومن يتفق معه في الفصل بين الدلالة والنحو.

لقد دار النقاش والخلاف بين وجهتي النظر هاتين حول تقديم أدلة وبراهين من المادة اللغوية المتوفرة من اللغات البشرية على تأثير العلاقات الدلالية على بنية الجملة. وهذا يلزم أن نبين تلك العلاقات الدلالية في وصفنا للجملة لكي نضمن أن يحسب وصفنا حساب كل ما يعرض لبنية الجملة. وانطلاقاً من كون البنى النحوية أو التغيرات النحوية خاضعة لاعتبارات دلالية أو أن لها سمات دلالية، افترض أفراد مجموعة «الدلالة التوليدية» أن من الأكفأ تصوير نظام القواعد بحيث تتولد الجملة من عناصر دلالية تجتمع في بنية دلالية تصور لنا دلالة الجملة ثم تجري على هذه البنية الدلالية تحويلات وتغيرات بحيث تعطي تلك البنية هيأتها النحوية الظاهرية — أو قل — بنية الجملة السطحية.

ضمن هذا التصور لنظام الوصف القواعدي لا يوجد هناك مستوى محدد يطلق فيه على البنية الجمالية النحوية اسم «البنية العميقة». فتوليد الجملة يبتدأ من بنيتها الدلالية التي تخضع كما قلت إلى تحويلات تصل بها إلى البنية السطحية.

مقابل ذلك قدم جومسكي ومن اتفق معه من الدارسين حججاً تدحض فرضية البدء ببنية دلالية للجملة تنقل

بالتحويلات إلى البنية السطحية وكذلك حججا تبرهن أنه ليس من الممكن تصور تحويلات بهذه الكثرة. وكذلك قدموا الحجة المنهجية الرئيسة التي تقول إننا لن نستطيع حصر مداخليل البنى الدلالية للجمل لأن المتغيرات أكثر مما يحصى في حين أن افتراض بنى نحوية عميقة أمر يمكن تحديده عن طريق تحديد هذه العناصر الداخلة في تكوين هذه البنى. ومن المهم معرفة أن استخدام براهين دلالية على بنى نحوية من نوع محدد قد جلب معه مسألة العناصر الدلالية (عناصر المعنى) التي تدخل في بنية الجملة الدلالية وماهيتها وخصائصها. وهذا سؤال مفتوح إذ أنها تسع كل عناصر معرفتنا بالعالم الخارجي وهذا أمر نحن في غاية البعد عن تحديده. (10)

وبين هذه الحجج والحجج التي تقابلها اتضح لجومسكي أن هناك عناصر في التأويل الدلالي في الجملة لا يمكن أن يعتمد فيها على بنية الجملة العميقة بل يجب أن تؤخذ بنيتها السطحية بنظر الاعتبار. (11) وقد يتصور أن هذه الرؤية المتطورة للتأويل الدلالي قد ألغت الفرق بين البنية العميقة والبنية السطحية من حيث أنها ألغت وظيفة كانت البنية العميقة تختص بها. إلا أن

هذا يجب أن لا يؤخذ على أساس إلغاء افتراض وجودها ضمن هذا المنهج، أو أن يؤخذ على أن التأويل الدلالي كان سبب وجودها. أما وأن التأويل الدلالي أصبح يعتمد على البنية السطحية والعميقة معا فلا حاجة إلى افتراض وجود بنيتين نحويتين عميقة وسطحية للجملة. فقد فقدت البنية العميقة النحوية مبرر وجودها. إن مثل هذا التصور الخاطئ يستبعد الحقيقة الأساسية في أن افتراض وجود للبنية العميقة للجملة يتأسس على حجج وبراهين نحوية وليس على حجج دلالية. وإن دحض وجود مثل هذا المستوى من التركيب النحوي للجملة يجب أن يقوم على الإتيان بحجج نحوية تنفي وجود بنية جمالية غير تلك الظاهرة للعيان. إذ أن الحجج التي قدمت لافتراض وجود مثل هذا المستوى النحوي كانت كلها حججا نحوية. أي أنها حجج تعتمد على بعض الظواهر والعمليات النحوية. أما الحجج الدلالية فقد قدمت لتقيم دليلا ثانويا. (12)

ولابد لنا هنا من إعادة التذكير بأن هذه الرؤية المتطورة للتأويل الدلالي تمثل رأي جومسكي ومن معه، وهو ما نعى به في هذه الدراسة. أما وجهة النظر الأخرى - ضمن هذه المدرسة - القائلة

بوجوب الابتداء بالبنية الدلالية للجملة - وهي ما يطلقون عليه البنية التحتية والعميقة - فهي ليست موضوع النقاش هنا. إذ نحن بصدد مناقشة مفهوم البنية العميقة في كتابات جومسكي. وكذلك فليس من المهم لنا في هذه الدراسة ذكر حقيقة أن وجهة النظر المخالفة لجومسكي قد اضمحلت وتفرق مريدوها والمدافعون عنها في بداية السبعينات بعد أن تبين لهم استحالة تحديد مثل تلك الآراء والأفكار وإعطائها وضوحاً تفصيلياً يمكن من خلاله تفحص كفاءتها وملاءمتها لوصف الظاهرة اللغوية وتوليد الجمل على وجه الخصوص.

إن آخر التطورات النظرية في آراء جومسكي ومن معه ممن يقولون باستقلال البنية النحوية عن البنية الدلالية تشير إلى اختلاف الرؤية إلى طبيعة الصلات بين مكونات القواعد. إذ ينظر الآن إلى دور البنية العميقة - يشير إليها جومسكي في كتاباته الحالية باسم D-Structure بأنه يتمثل في تبين العلاقات القواعدية - أو الأدوار الوظيفية - كالفاعل والمفعول وغيرها من الأسماء في الجملة. أما التأويل الدلالي للجملة فإنه يقع على مستوى جديد يتوسط البنية العميقة والبنية السطحية التي تمثل الشكل

الظاهري للجملة، هذا المستوى هو مستوى البنية - س S-Structure - وهو بنية الجملة بعد أن تجري عليها عمليات النقل - نقل بعض العناصر من مكان إلى آخر وقبل أن تجري عمليات الحذف وغيرها فهذه تأتي متأخرة على عمليات النقل الأساسية - نقل أدوات الاستفهام والعبارات الإسمية. وعلى هذا فقد قسمت التحويلات هنا إلى قسمين وهما يعملان في مرحلتين مختلفتين من اشتقاق الجملة. (13)

غير أن هذا لا يعني - كما يقول جومسكي - التخلي عن افتراض وجود مستوى نحوي للجملة هو مستوى البنية العميقة يختلف عن المستويين النحويين الآخرين - البنية - س والبنية السطحية. والأمثلة التي يسوقها على وجوب افتراض هذا المستوى مستوحاة كلها من العبارات الاصطلاحية. وهذه أدلة - كما يقول - لا توجب افتراض مستوى البنية العميقة النحوية كمستوى متميز عن مستوى البنية السطحية فحسب، بل إنها تقدم حجة ضد من يفترض عدم وجود مبرر لافتراض وجود بنية نحوية مستقلة عن البنية الدلالية.

قصدت من هذا العرض لمدرسة القواعد التوليدية التحويلية - وعلى وجه

الخصوص آراء جومسكي والتغيرات التي جرت على تصوره النظري، تحديد مفهوم البنية العميقة. إذ لم يكن ممكناً تحديد هذا المفهوم بدون إلقاء ضوء على تصورات جومسكي ورؤيته للنظرية اللغوية والقواعد. فالبنية العميقة كمفهوم هو وليد لهذه المدرسة ولأفكار جومسكي. وننتقل الآن إلى التساؤل عن وجود ما يقابل هذا المفهوم في التراث النحوي العربي، ومدى التشابه بين البنية العميقة وما يقابلها في هذا التراث إن وجد لها مقابل.

3. البنية العميقة في الدرس النحوي العربي:

إن أول ما يمكن أن نبحت عنه لتثبيت وجود مثل هذا التصور في التراث النحوي العربي هو وجود دلائل تحيل إلى وجود مستويين للتركيب النحوي الجملي وإذا ما كانت هناك فعلاً إشارة إلى عمليات نحوية تؤثر على البنى النحوية للجملة. إن هذا - لو وجد - يقدم دليلاً لا لبس فيه على افتراض وجود مستويين للتركيب النحوي الجملي. وهذه أول خطوة في إثبات افتراض وجود بنية عميقة ضمن تصور النحاة العرب لنظام القواعد اللغوية. أما الأمر الثاني الذي

يجدر بنا تفحص وجوده في التراث النحوي العربي فهو النظر فيما إذا كانت الحجج التي تقام على افتراض هذين المستويين في البنية النحوية هي حجج نابعة من الانتظامات النحوية التي افترضوها، أم أنها حجج دلالية بحتة بحيث يصبح الفرق بين التركيبين فرقاً بين الصورة الدلالية للجملة وبين بنيتها النحوية.

ولابد لنا من القول هنا أن اقتصارنا في هذا الصدد على هذين الأمرين ينبع من كونها يتعلقان بالسّمَتَيْن الجوهريتين في مفهوم البنية العميقة: نحويتها واختلافها عن بنية أخرى هي البنية السطحية. ولا فائدة - كما أرى - من التوسع في تناول السمات الأخرى التي تدخل في تحديد مفهوم البنية العميقة عند جومسكي إذ لا يمكن تصور تشابه بين منهجين بينهما هذا البعد فيها.

إن الإجابة على السؤال الأول: أي افتراض وجود مستويين للبنية الجمالية في منهج البحث النحوي العربي يسيرة. فهذا الافتراض موجود في ذلك المنهج ولسنا هنا بحاجة إلى التدليل على ذلك بالتفصيل فهو مما تمتلئ به كتب النحو العربية، ومما يمكن تلمسه من الكلام المستفيض عن تقديم بعض العناصر

النحوية أو حذف بعضها أو تقدير وجود البعض الآخر.

فعلى سبيل المثال نجد في أوائل صفحات كتاب سيبويه كلاما عن الجملة وعن نسق عناصرها وعن إمكانية أن يتقدم بعضها على بعض كتقدم المفعول به على الفاعل ولكن ذلك لا يعني - لديه - أن تتغير الصلات النحوية بين تلك العناصر. «فمن ثم كان حد اللفظ أن يكون (أي الفاعل) فيه مقدما...»⁽¹⁵⁾ وسيبويه يعطي بعد ذلك أسبابا تجعل متكلمي العربية يقدمون بعض العناصر. «فإنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أغنى»⁽¹⁶⁾ ولنا أن نمثل على هذا الافتراض بوجود مستويين بنويين للجملة بمقولة ابن هشام حين يتحدث عن الأصل وأن الصدر فيه هو المعتبر. «فالجملة من نحو (كيف كان زيد) ومن نحو (فأي آيات الله تنكرون) ومن نحو (فريقا كذبتهم وفريقا تقتلون) و (خشعا أبصارهم يخرجون) فعلية لأن هذه الأسماء في نية التأخير»⁽¹⁷⁾ فابن هشام يعتمد في تصنيفه الجمل إلى إسمية وفعلية على نسق غير النسق الذي تظهر عليه عناصر الجمل التي يوردها فيما اقتبسناه. إذ لا يظهر الفعل في أي منها في الصدر ومع هذا فإنها فعلية باعتبار أن

الفعل هو الصدر في أصلها. أي بتعبير آخر: هناك نسق أصلي، ونسق ظاهري، والإثنان مختلفان في الجمل التي أوردها.

إن مجرد الحديث عن تقديم المفعول به على الفعل أو الفاعل مثلا يقتضي افتراض مستويين للبنية الجمالية يكون المفعول به في أولاهما في مكان متأخر عن الفعل أو الفاعل ويكون في ثانيتهما مقدما على الفعل أو الفاعل. وإلا فما معنى استخدام مصطلح «التقديم». وكذلك الأمر في استخدام مصطلح الحذف. إذ لا يحذف إلا ما كان له وجود. وإذن فمجرد الكلام عن «محذوف» يلزم افتراض وجوده قبل الحذف. ويعني هذا افتراض حالتين للجملة يكون العنصر (المحذوف) موجودا في أولاهما - أي أن هذه الحالة تسبق عملية الحذف - ولا وجود له في الحالة الثانية لأنه يكون قد حذف.

وقل الشيء نفسه عن «التقدير» فالذي يقدر هو عنصر لا وجود ظاهريا له. فإذا قدرناه لزم افتراض وجوده. فكيف ياترى يمكن ملاءمة وجود الشيء مع عدم وجوده إلا بافتراض وجود بنيتين للجملة يكون ذلك العنصر موجودا في إحداها وغائبا في الأخرى.

في هذا كله دلالة واضحة على هذا الافتراض النظري في منهج الدرس النحوي العربي. فهذا الدرس يقوم على افتراض مستويين تركيبين للجملة أحدهما ظاهري والآخر أعمق منه ويكون بالنسبة للأول بمثابة الأصل الذي ينبثق منه، والأساس الذي ينبني وصف المستوى التركيبي الظاهري عليه. ومن هذا يأتي جواز كلامنا عن تقديم المفعول به أو حذف الفعل وفاعله أو تقدير الفعل الذي يفسره فعل آخر مذكور، وهكذا.

أما بالنسبة للأمر الثاني وهو السؤال فيما إذا كانت الحجج التي تقام على افتراض هذين المستويين في البنية النحوية هي حجج نحوية أم دلالية، فإنه يستدعي التوقف والنظر في هذا التراث الضخم للإجابة على السؤال. إذ أن على إجابته يتوقف الحكم بمدى التشابه أو الاختلاف فيما بين المنهجين (منهج جومسكي ومنهج الدرس النحوي العربي) حول مفهوم البنية العميقة.

إن التحقيق في الأمر يكشف أن النحاة العرب في جل ما قدروه من بنى نحوية باطنة أو أصلية (أو عميقة بما نستخدم عليه هنا) كانوا مدفوعين ببواعث نحوية محضة. فما يتبين لنا هو أن الحذوفات أو الزيادات أو التقديرات التي افترضت

في كل حالة من هذه الحالات كانت تلزم النحوي لكي تطرد أحكام قواعده: إما قواعده عن الصورة المثالية للتركيب الجملي أو قواعده التي ينشئ إعرابه للنص اللغوي عليها. فالصورة المثالية التي أوجدوها للجملة هي أن يكون لها ركنان، فإذا وجدوا جملة ليس فيها أحد هذين الركنين قدروه. أما الإعراب، فمن المعلوم أنه ينطلق من تفسير لظاهرة تغير الحركات في أواخر الكلمات في الجمل، قد أعطي هذا التفسير ضمن نظرية العمل التي تفسر اتخاذ أجزاء الجملة (كلمات أو أجزاء أكبر من الكلمات) هيئات (مادية أو مجردة) مختلفة بأنها نتيجة عمل بعضها على بعض. ولابد من الإشارة هنا إلى أن العمل النحوي ليس له أساس دلالي بل أن عمل عنصر في عنصر آخر يتأسس على العلاقة البنيوية بينهما وليس على وجود علاقة دلالية بينهما. فالمبتدأ والخبر يترافعان (مثلاً) عند بعض النحاة. وليس من الضروري أن تكون هناك صلة دلالية بينهما. فالصلة بينهما صلة تركيبية بحتة كما هو واضح. ويقال الشيء نفسه عن عمل الفعل بفاعله ومفعوله، أو عمل الحرف المشبه بالفعل باسمه وخبره، أو الصفة بفاعلها، أو حرف الجر بمجروره، وهكذا.

ولو أخذنا من جانب آخر حالات التقديم التي افترضت في المادة اللغوية، فإن حجج النحاة كانت جميعها نحوية ولنأخذ جملة مثل «عمرا ضرب زيد». إن تحليل هذه الجملة على أساس أن «عمرا» مفعول به مقدم يستند أساسا إلى الحركة الإعرابية في آخره والتي تحدد علاقته النحوية بالفعل. إذ لا بد له من ناصب - هو الفعل - ولذلك فلا بد للفعل ضرب من مفعول، وهو «عمرا» هنا، إذ ليس هناك ضمير ظاهر في الجملة. وهكذا فإننا نرى أن التبرير نحوي بحت. وهو الذي يفسر السبب في عدم إجازة النحاة تقديم المفعول على الفاعل إن كانا مقصورين حين تنعدم القرينة.⁽¹⁸⁾ إذ لن يكون هناك - في هذه الحالة - دليل على بنية الجملة يستند إليه في تأويلها.

واستقراء حالات الحذف والتقدير التي يفترضها النحاة العرب في تحليلهم النحوي للمادة اللغوية (أي إعراب تلك المادة) يرينا أن ما هو محذوف (ويقدره النحوي) عنصر تقتضي تقديره منطلقات نظرية عن الصورة المثالية للجملة (كما أسلفنا) أو من نظرية العمل وما تتأسس عليه من حدود تركيبية على البنية النحوية للجملة. فالحذف لا يجوز إلا إذا قام عليه دليل. والدليل نوعان غير

صناعي وصناعي «وهذا يختص بمعرفته النحويون». ⁽¹⁹⁾ غير أن هذا الحذف محكوم بعدة شروط (يفصلها ابن هشام في الجزء الثاني من المغني) وهي شروط تقتضيها كلها منطلقات وحدود نحوية بحتة، فالمحذوف يجب أن يكون طبقا للمذكور، وأن لا يكون المحذوف كالجاء الذي لا ينفصل - فلا يحذف الفاعل أو نائبه بدون الفعل، أما حذفها معا فجائز مثل (زيدا ضربته)، ⁽²⁰⁾ أي (ضربت زيدا ضربته). وأن لا يكون المحذوف عاملا ضعيفا: أي أنه لا يجوز تقدير مثل هذا العامل إلا في مواضع قويت فيها الدلالة كتقدير «أن» محذوفة بعد «حتى» لكي يفسر نصب الفعل بعدها. وآخر القيود التي تحكم الحذف هو اشتراط أن لا يخل الحذف باطراد نظرية العمل وما يتفرع عنها، يقول ابن هشام وامتنع عند البصريين أيضا حذف المفعول في نحو (زيد ضربته) لأن في حذفه تسليط «ضرب» على العمل في «زيد» مع قطعه عنه وأعمال الابتداء مع التمكن من أعمال الفعل. ⁽²¹⁾

وقد ضبطت مواقع التقدير بضوابط وحدود وهذه الضوابط والحدود نحوية محضة، فالعنصر الذي يفترض وجوده في مستوى تحتي من البنية الجمالية ويحذف

فلا يبين على سطحها قد حدد بشكل واضح لا يقبل اللبس. والتحديد هنا يشمل ماديته وشكله ومكانه أما معايير تحديده فهي نحوية كما أسلفنا. فالفاعل أو نائبه (مثلا) لا يتقدم على فعله (على رأي البصريين) وإذن فإن (الشمس) في الآية الكريمة: «إذا الشمس كورت» لا يمكن أن تكون نائب فاعل مقدما للفعل (كورت). وهي لا يمكن كذلك أن تكون مبتدأ لأن هناك حدا بنيويا على وجود «إذا» هو أنه لا يليها إلا الفعل. وهكذا فلا بد لكلمة «الشمس» من رافع — أي عامل للرفع — ومن هنا يأتي تقدير وجود «فعل محذوف يفسره المذكور» وافترض أصل — أي بنية تحتية — للآية هو «إذا كورت الشمس كورت». وكذلك الأمر في الآية الكريمة: «وإن أحد من المشركين استجارك». ومن ذلك أيضا تقدير الأفعال في باب الاشتغال الشهير. يقول صاحب الكتاب «وإن شئت قلت (زيدا ضربته) وإنما نصبه على إضمار فعل هذا يفسره». (22)

ولنلاحظ مثلا آخر لتقدير محذوف توجبه الحدود التركيبية على البنية الجمالية. فالموصول لا يليه إلا الفعل ولهذا فلا يقدر متعلق للجار والمجرور حين يكون هذا صلة إلا الفعل. ولا يجوز

تقدير الوصف هنا. (23) ويقدم ابن هشام مثلا آخر على التبريرات والحدود النحوية البحتة على تقدير العناصر. فيقول «وكنا قدمنا القول في نحو (في الدار زيد) إن متعلق الظرف يقدر مؤخرا عن (زيد) لأنه في الحقيقة خبر، وأصل الخبر أن يتأخر عن المبتدأ، ثم ظهر لنا أنه يحتمل تقديره مقدما لمعارضته أصلا آخر، وهو أنه عامل في الظرف، وأصل العامل أن يتقدم على المعمول، اللهم إلا أن يقدر المتعلق فعلا فيجب التأخير لأن الخبر الفعلي لا يتقدم على المبتدأ في مثل هذا. (24) أو لناخذ مثلا شاع في كتب النحو يدلنا على نحوية الحجج التي يقدمها النحاة على تعيين ما يقدر. فقد تقدم أن حرف الجر لا يقدر إلا إذا قويت عليه الدلالة. ومن هنا لم يقدر حرف الجر مع الفعل المقدر العامل على «أرجلكم» المنصوبة في الآية الكريمة: «.... وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم...» قياسا على الفعل المذكور «امسحوا» الذي يتعدى إلى مفعوله بحرف جر.

ويعود ابن هشام فيوضح لنا وجوب كون حجج الحذف والتقدير نحوية محضة في كلمات لا تدع مجالا للشك في هذا الأمر. فهو يقول: «إن الحذف الذي يلزم النحوي النظر فيه هو ما اقتضته الصناعة وذلك بأن يجد خبرا بدون مبتدأ

أو بالعكس، أو شرطاً بدون جزاء أو بالعكس أو معطوفاً بدون معطوف عليه، أو معمولاً بدون عامل... وأما قولهم في نحو «سراييل تقيكم الحرّ» إن التقدير «والبرد»... ففضول في فن النحو وإنما ذلك للمفسر»⁽²⁵⁾ وإذن فتقدير شيء لا توجبه الانتظامات النحوية التي يفترضها النحوي ليس بشيء بل إنه أمر متروك لمن يفسر معنى الآية الكريمة. ولا ينفرد ابن هشام في هذا بل نرى هذا الرأي يطرد عند جمهرة النحاة. فيذكر ابن جني في باب الحمل على المعنى «ومنه قولهم: أهلك والليل، فإذا فسروه قالوا أراد «الحق أهلك قبل الليل» وهذا - لعمرى تفسير المعنى لا تقدير الإعراب فإنه على: الحق أهلك وسابق الليل»⁽²⁶⁾ أي أن ما يلزم النحوي هو تقدير فعل يعمل على «الليل» فينصبه وليس مضافاً يضاف إلى الليل كما في تفسير المعنى. نخلص من هذا إلى أن النحاة العرب كانوا يصوغون الأصل (أي البنية العميقة) في الجملة استناداً إلى حجج نحوية محضة نابعة كما قلنا من الحدود التي رسموها للبنية الجمالية والافتراضات النظرية التي وضعوها لتفسير الظواهر النحوية.

غير أننا لا بد أن نشير هنا - وبعد هذا كله - إلى أن القارئ قد يجد هنا وهناك

حالات من التقدير «لا تقتضيه الصناعة ولا يلزم المعرب» فهو لا يتأسس على أساس نحوي. ونجد أمثلة لهذه الحالات جنباً إلى جنب مع حالات من التقدير «الذي تقتضيه الصناعة» الذي أسلفنا ذكره. فمواضع التقدير هذه مواضع يقتضي التقدير فيها أسباب دلالية أو تبريرات بلاغية. فتجد من النحاة من يقدر مثلاً كلمة «حب» بين الجار والضمير في الآية الكريمة (ذلك الذي لمُتَنِّني فيه) لأن «الذوات لا يتعلق بها». وكذلك يقدر «أهل» قبل «القرية» وقبل «العر» في الآية الكريمة (واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها) ومن النحاة من يقدر ثلاث متضائفات محذوفة في الآية الكريمة (فكان قاب قوسين...) فالأصل في الآية يقدر (فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين...) ⁽²⁷⁾ وقد يصل الأمر إلى تقدير أكثر من جملة. فابن هشام يفرد باباً لحذف الكلام بجملة فيقدر في قوله تعالى: ﴿فقلنا اذهبوا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم﴾ شيئاً مثل (فأتياهم فأبلغاهم الرسالة فكذبوهم) قبل «فدمرناهم»⁽²⁸⁾ وغير ذلك كثير.

ولابد لنا من النظر في هذا النوع من التقدير الذي يختلف عن سابقه. فهو -

كما قلت — مما لا تقتضيه أسباب الصناعة النحوية وهذا فرق أساس بينه وبين الأول. إذ بأن «القرية» في المثل السابق منصوبة بالفعل «إسأل». ولو كان الأمر وفق التقدير المفترض لكان حكمها الجر بإضافة «أهل» المقدرة لها. وتجد الأمر عينه في كل حالة من حالات التقدير هذه. إن تقدير هذه العناصر «المحذوفة» يقتضي — لو اطرء المبدأ العام الذي ذكرناه سابقا — إن تتغير مواقعها الإعرابية، وإن تظهر عليها علامات إعرابية أخرى تبين موضع الحذف وماهية المقدر كما في الأمثلة التي سبق وإن تناولناها.

إن تقديرات مثل هذه تفضي بنا إلى الإقرار بأن التبريرات التي أعطيت للحذوفات والتقديرات لم تكن نحوية خالصة بل أن هناك حالات من الحذف والتقدير لا تبرير نحوي لها بل أنها قدمت ليكتمل المعنى — فتبريرها دلالي حسب. وإن قد يصح قول القائل أن افتراض مستويين لبنية الجملة في منهج النحو العربي لا يعتمد على تبريرات نحوية محضة. وعلى هذا فالبنية العميقة التي يفترضها قد لا تكون نحوية خالصة. بل يمكن أن نتصورها بنية جمالية تمثل المعنى وتتكون من وحدات

دلالية وإذن فسيكون هذا موضع اختلاف أساس بين منظور جومسكي للبنية العميقة وبين نظرة النحاة العرب.

ولكن لا بأس من التحقق من شيوع هذه التبريرات الدلالية في مسألة افتراض مستويين تركيبين للجملة. والذي يبدو هو أن إدخال هذه التبريرات — أو بعبارة أدق — التوسع في افتراض بنية عميقة (أصل) للجملة تشمل كل ناحية من نواحي دلالتها كان نتيجة التطور التاريخي للدرس النحوي العربي. إذ يبدو أن القدامى من النحاة لم يكونوا ليقدموا مثل هذه الأمثلة على التقدير والحذف والتي تأخذ بعين الاعتبار اكتمال معنى الجملة كما يفترضها من يفسرها بل إنهم اقتصروا في افتراضهم لما حذف وما يقدر على ما تقتضيه الحدود البنيوية للجملة والافتراضات النظرية التي فسروا بها الظواهر النحوية فقط. والظاهر أن المتأخرين منهم هم الذين توسعوا هذا التوسع الذي مثلنا له قبل قليل في تبريراتهم.

ومن الطريف أن نذكر هنا أن ابن هشام، وبعد أن يستعرض مواضع الحذف والتقدير بالتفصيل الذي ألهنا إليه، ويمثل لها بالأمثلة الكثيرة، يأتي بملاحظته السابقة الذكر عن كون التقدير

الذي يلزم النحوي هو الذي تقتضيه الصناعة. فلعلنا هنا أمام شيء من التأرجح بين موقفين منهجين. أو قد لا يكون القائل بهما معاً معنياً أو مدركاً لهذا التناقض الواضح. أو قد يكون ذلك واضحاً له غير أنه أتى بمقولة مناقضة لما يراه على اعتبار صحتها السابقة، أو قد يكون قد رأى وجهة كل من الرأيين والنظرتين - نظرة النحاة ونظرة المفسرين. وعلى أية حال فهذا أمر يترك للمشتغلين بتاريخ الدرس النحوي العربي وتطوره.

إن هذا التوسع في افتراض المستوى التحتي للجملة بالاعتماد على تبريرات دلالية قد يكون مردّه إلى محاولة الجمع بين دلالة الجملة ونحوها في مقاربة واحدة. ولعل مما يفيد هنا النظر في علم المعاني في الدرس اللغوي العربي والمسائل التي تناولها المشتغلون به. فهؤلاء جعلوا جزءاً من اهتمامهم منصّباً على أوجه العلاقة بين بنية الجملة ودلالاتها. وهذا يذكرنا بالتطور الذي شهدته مدرسة القواعد التوليديّة في أواخر الستينيات والذي تحدثنا عنه آنفاً. تمثل هذا التطور في اتخاذ بعض دارسي تلك المدرسة موقفاً مخالفاً لجومسكي ونظرته للعلاقة بين الدلالة والنحو، وأثر هذا على رؤيتهم

للبنية العميقة للجملة كما ذكرنا في الفقرة السابقة من هذه الدراسة.

وليس من الغريب الجمع بين البحث في تركيب الجملة والبحث في معناها ودلالاتها فالترابط بينهما كبير ويتجلى بصورة واضحة في تغير دلالة الجمل حين يتغير تركيبها النحوي، أو في تغيير معاني الجمل حين تتغير مواقع كلماتها. وقد شغلت هذه العلاقة النحاة العرب - كما شغلت غيرهم من النحاة - فأنت تجد إشارات كثيرة إلى معاني الجمل وما يلحقه تغير تراكيبيها على معانيها وعلى وظيفتها اللغوية من استفهام وإخبار وتعجب، في كتب النحو متقدمها ومتأخرها. غير أن النظر في المعاني اقتصر على المعاني النحوية التي تفرزها العلاقات النحوية المختلفة بين عناصر الجملة بعضها ببعض. ولم يتعد ذلك إلى العلاقات الدلالية ضمن عناصر الجملة نفسها. أي أن هذه العلاقات الدلالية لم تتخذ عاملاً يحدد العلاقات النحوية بين تلك العناصر. فكون العلاقة الدلالية بين «القارورة» و«انكسرت» في جملة «انكسرت القارورة» تختلف عن العلاقة الدلالية بين «الطفل» و«كسر» في جملة «كسر الطفل القارورة» لم يستلزم لدى النحاة افتراض

4: المقابلة بين منهج جومسكي والتراث النحوي العربي

إن الاستعراض السابق لمفهوم البنية العميقة وكذلك مناقشة افتراض ثنائية المستوى البنيوي للجملة في الدرس النحوي العربي يجعلاننا في موضع أفضل لمناقشته وتقويم التقابل الذي تناولته بعض الدراسات التي ظهرت حديثاً بين المنهجين لتأشير النقاط التي يلتقيان حولها. إذ قد توضح لنا من ذلك الاستعراض أن المنهجين يلتقيان في افتراضهما مستويين للبنية النحوية الجمالية وكذلك فإنهما يلتقيان في إرساء تصورهما للمستوى الباطن (أو التحتي أو العميق) للبنية النحوية على حجج أو أدلة نابعة من الانتظامات النحوية وحدها. أي أنهما يلتقيان في استقلال النحو عن الدلالة. ولكن قبل الدخول في مناقشة وتقويم تلك الدراسات لابد من تناول حدود المقارنة الممكنة والمقبولة بين المناهج العلمية المختلفة.

إن نقاط التشابه والاختلاف في النتاج الفكري العالمي كانت وما زالت (وستظل كما أظن) موضوعاً خصباً للنقاش والتأمل. وتعد في الكثير من الأحوال مقارنات بين هذه النتاجات الفكرية قد

اختلف في العلاقة النحوية بين الفعل والإسم في الجملتين. إذ أن «الضرورة» و «الطفل» كلاهما فاعل لفعله مع اختلاف علاقته الدلالية به. وكذلك فاختلاف مقاصد المتكلم من قوله جملة واحدة في كل مرة يقولها لم يلزم النحاة إعطاء الجملة تحليلاً نحوياً مختلفاً في كل مرة تبعاً لكل مقصد.

فقد يكون مقصد المتكلم من الجملة أن يستفهم بها مرة، ويخبر بها مرة أخرى. لكن ذلك لم يعتد به سبباً لإعراب الجملة بشكل مختلف كل مرة. فذلك خارج كما يبدو عن نطاق الدرس النحوي. وهذا ما نعنيه باستقلال النحو عن الدلالة. ولعل من المفيد مقارنة وجهة النظر هذه بوجهة نظر القائلين بعدم استقلال النحو عن الدلالة في مدرسة القواعد التوليديّة فهؤلاء — في رفضهم استقلال المستوى النحوي عن الدلالي — افترضوا بنى عميقة للجملة تعكس العلاقات الدلالية المختلفة. وهكذا فالجملتان اللتان مثلنا بهما على اختلاف العلاقة الدلالية بين الفعل والفاعل تعطيان بنيتين عميقتين مختلفتين تبينان هذا الاختلاف في العلاقة. وهذا كما أشرنا ما لم يقل به نحوي في الدرس النحوي العربي.

يكون الدافع إليها اكتشاف المشتركات الفكرية البشرية وما يمكن أن تلقيه من ضوء على الحدود الإدراكية والمعرفية الإنسانية. أو قد يكون عقد المقارنات من أجل الإجابة على سؤال التأثير والتأثر بين الأنشطة الفكرية للمجموعات البشرية المختلفة، وقد يكون بسبب حاجة نفسية للافئنان على عصرية التراث الفكري وصلته الوثيقة بالتيار الفكري العالمي.

غير أن من المهم في مثل هذه المقارنات أن لا تنسى الفوارق الزمنية وكذلك الاختلافات الحضارية والثقافية التي نشأ فيها كل من النتاجين المقارنين. إن تجريد النتاج الفكري عن زمنه وعن الحضارة التي أنتجته تجريد له عن جزء أساس من معناه ومغزاه. ويقود هنا بالتأكيد إلى فهم جزئي له إن لم يكن يقود إلى إساءة فهم كلية.

إن الكثير من الدراسات الأخيرة التي عنيت بنقاط الالتقاء بين منهج الدرس النحوي العربي ومنهج الدرس اللغوي الحديثة يفرد فصلاً للحديث عن أوجه التشابه بين الدرس النحوي العربي ومنهج القواعد التحويلية. ومن المواد التي تناقش ضمن هذا الإطار مفهوم البنية العميقة واشتراك المنهجين في افتراضه.

غير أن من الملاحظ على جل هذه الدراسات أنها خرجت بتعميمات ونتائج غير دقيقة في هذا الأمر. وقد يعود هذا في بعض الأحيان إلى التحمس - تحمس الكاتب إلى تبين عصرية الدرس النحوي العربي وتقدمه - فهو قد عالج قبل ألف سنة ما تعالجه المناهج الحديثة اليوم. إلا أن فائدة مثل هذا التحمس في البحث العلمي ليست كبيرة. بل إنه قد يوقع في مزالق من التعميمات غير الدقيقة مما يبعده عن موضوعية البحث العلمي ورضانته.⁽²⁹⁾

إن أحد أهم أسباب وقوع تلك الدراسات في التعميمات الخاطئة هو الجهل بأصول هذا المنهج أو ذاك من مناهج الدرس اللغوي، واستقاء المعلومات عنه من مصادر ثانوية قد تكون هي نفسها معرضة لسوء الفهم. وقد أوقع هذا الجهل أو سوء الفهم في تخطيط عجيب. أو قد يكون السبب سوء فهم النصوص الواردة في التراث النحوي العربي أو إعادة تفسيرها لتنسجم مع ما يريده الكاتب. ومهما كانت الأسباب فإنها ستجعل من محاولات المقارنة والتقابل تلك بلا جدوى أو مغزى كبيرين. لقد ساوت معظم هذه الدراسات والكتابات بين البنية العميقة للجملة

ومعناها.⁽³⁰⁾ وهذه المساواة - كما بينا - لم تمثل وجهة نظر جومسكي يوماً، بل إن كل كتاباته تضع خطأ فاصلاً بين الإثنين، فهو كان وما زال يقول باستقلال النحو عن الدلالة. وقد يكون سبب هذا الخطأ هو تفسير قوله في كتابه: «جوانب من نظرية النحو» إن التأويل الدلالي لجملة من الجمل تحدده بنيتها العميقة، والقارئ الكريم يعرف أن هذا رأي قد تجاوزته التطورات التي شهدتها أفكار جومسكي في السبعينات والثمانينات. أو قد يكون سبب هذا الخطأ ما ذكرناه من التوسع في دلالة مفهوم البنية العميقة الذي قام به الدالليون التوليديون الذين قالوا بأن السبيل الوحيد إلى تفسير تأثير العلاقات الدلالية بين عناصر الجملة على بنيتها سيؤدي إلى رفض وجود مستوى نحوي باطن مستقل عن البنية الدلالية للجملة. ولهذا فهم يفترضون شكلاً لنظام القواعد يتكون من مستويين الأول منهما التمثيل الدلالي للجملة (وهو ما أطلقوا عليه البنية العميقة أو التحتية) والثاني هو مستوى البنية السطحية التي تظهر عليها الجملة.

بل إن بعض هذه الدراسات قد توسعت أكثر في افتراضها ماهية البنية العميقة فجعلتها هدف المتكلم ومقصده،

ف نجد د. عمايره يقول إن «هدف الجملة الجوهري هي بنيتها العميقة» بالإضافة إلى كونها «المعنى الدلالي لها». وفي هذه الحالة فإن القوانين التحويلية لن تكون أكثر من أدوات توصل الجملة إلى شكلها الظاهر. ولكنه في الوقت نفسه يقول إن هذه القوانين تغير من معنى الجملة «فيتغير معنى الجملة في كل مرة إلى معنى جديد وفقاً لقواعد نحوية معينة - transfor-mations. ثم يعود ليقول إن «معنى الجملة العميق يبدو في تراكيب سطحية وفقاً لقواعد النحو التحويلي التي وإن كانت لا تغير من المعنى الأساس في الجملة إلا أنها تؤثر على التراكيب السطحية التي تبدو عليها».⁽³¹⁾

وربطت بعض هذه الدراسات بين القابلية اللغوية Competence والبنية العميقة وبين الأداء Performance والبنية السطحية، ونسبت هذا الربط إلى جومسكي. فيذهب عمايره في دراسته إلى أن القابلية (القدرة) اللغوية... «هي الجانب الأدبي المضبوط بقواعد صوتية وصرفية ومعجمية تهدف تحقيق المعنى الدلالي العميق يعبر عنه (البنية التحتية)».⁽³²⁾ وكذلك يذهب د. الراجحي إلى أن البنية العميقة هي «الكفاءة» والأداء هو بنية السطح. ويحيل إلى الصفحات الأولى من كتاب جومسكي

«جوانب من نظرية النحو» التي ليس فيها ما يدل على هذا الذي يقوله، بل إن د.الراجحي يربط بين نحوية الجملة - أي صحتها التركيبية - بتلاؤم بنيتها السطحية مع قوانين البنية العميقة عند المتكلم.⁽³³⁾

وعند هؤلاء وغيرهم يكتسب مصطلح «البنية العميقة» معاني لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالمعنى الاصطلاحي الأصلي لهذا المصطلح. «فالبنية العميقة، بوصفها إفرازاً للمعنى تعكس أشكال الفكر الإنساني». بل إنها تشمل كل ما بنفس الإنسان. «فباختصار أن ما يظهر على السطح أو يرتسم على الوجه أو ينطلق على اللسان أو يلتمع في العيون أو... أو... من علامات وإشارات ورموز وتعايير بمختلف الأشكال والألوان والصور عبر سلسلة من التوليدات والتحويلات (الجومسكية) وعبر استخدام الأدوات والمعطيات المحدودة للتعبير عن أشياء ودلالات لا محدودة بقابلية خلاقة رزقها الإنسان إذ هي إلا انعكاس للتركيب العميق الذي يدور في خلد الإنسان ومخيلته ومشاعره».⁽³⁴⁾

غير أن أكثر شخصية اتخذت رمزاً لمقارنة التراث النحوي العربي بمدرسة القواعد التوليدية - أو جومسكي على

وجه الخصوص - كان رجلاً بلاغياً وليس بنحوي هو الشيخ عبد القاهر الجرجاني. لقد التقت هذه الدراسات على تقديم قراءة جديدة للجرجاني في كتابيه (دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة). فقد وجدت الشيخ يفترق عن غيره ممن عالجوا البلاغة بتأكيدهم على أنها نتاج نظم الكلمات وليست خاصية لكلمة بعينها. ووجدت هذه الدراسات بين نظرية النظم التي قدمها الجرجاني وبين بعض سمات من كتابات جومسكي أوجه شبه عديدة فشبهوا القوانين التحويلية التي تنقل بنية الجملة العميقة إلى بنيتها السطحية عند جومسكي بالخيارات النظمية التي تتفرع من أصل واحد وتكون متاحة للمبدع في اختيار ما يلائم مقصده. إذ أن كلا منها يختلف عن غيره بظل من المعنى (ومثل الجرجاني المشهور على ذلك: زيد المنطلق، المنطلق زيد، زيد انطلق، انطلق زيد).⁽³⁵⁾ وزاد من تلك الشبهة أن الجرجاني وجومسكي يلتقيان في اتخاذهما الجملة موضوع درسهما الأساسي. فوحدة البحث البلاغي عند الجرجاني هو الجملة وأن الكلمات هي عناصر تنتظم في الجملة والبلاغة تكمن في ذلك الانتظام وليس في هذه الكلمة أو تلك. وجومسكي كما هو معلوم يتخذ من الجملة الوحدة الأساسية

للتحليل اللغوي. وجل كتاباته كانت عن الجملة فالرجل معني بالأبنية النحوية أكثر من غيرها من البنى اللغوية. وكذلك فكلام الجرجاني عن المعاني المختلفة التي تنتجها الخيارات النظمية — أي الوظائف المختلفة للأبنية المختلفة — قد أوحى للكثيرين بوجود تشابه بينه وبين جومسكي الذي أعاد للدرس اللغوي في أميركا عنايته بالدلالة — وعنايته — بالمحل الأول — بتقديم تفسير للظاهرة اللغوية ضمن قوانين عامة وعدم الاقتصار على الوصف والتصنيف. وكذلك فقد أوحى كلام الجرجاني عن مقاصد المتكلم وترتب الكلام في نفسه بوجود تشابه بينه وبين جومسكي الذي تحدث كثيرا عن منهجه العقلي في الدرس اللغوي.⁽³⁶⁾

ولا بد لنا هنا أن نراجع بالتفصيل كل هذه الأوجه من التلاقي ونتفحصها على وجه الدقة. وأول ما نجد أنفسنا تجاهه هو حقيقة أساسية تفرق بين فكري الرجلين وآرائهما: تلك هي اختلاف موضوع بحثهما. إن جومسكي معني أساساً بالبنية النحوية وكيفية وصفها من حيث طبيعتها وشكلها. والبنية النحوية لديه هي البنية النحوية للغة ما عند المتكلم/ السامع المثالي. فهو إذن يتحدث عن البنية النحوية بصورتها

المثالية — كما أسلفنا — بتجريدها عن كل أثر فردي كالمهارات الكلامية عند البعض، وكل أثر غير لغوي (أو غير قواعدي على وجه أدق) كالذي يعرض للنتاج اللغوي من مؤثرات ليست من اللغة والنظام اللغوي بشيء. وتأكيد جومسكي كان دوماً على البنية اللغوية دون غيرها من أوجه البحث في اللغة البشرية — كالوظيفة اللغوية والدلالة وعلاقة اللغة بالمجتمع. وكما قلنا في الفصل الثاني من هذه الدراسة فإنه يرى — وهذا أمر يتكرر في كل كتاباته — أن الشيء المهم في اللغة البشرية بالنسبة له هو بنيتها — فهذه هي الأمر الوحيد الذي يميزها عن غيرها.

أما الجرجاني فإنه معني مباشرة بالإبداع الفردي في الاستخدام اللغوي. وهو يريد أن يستكشف قوانين هذا الإبداع الفردي فيقدم ما عرف «بنظرية النظم» التي يريد منها القول إن الإبداع يكمن ليس في اختيار كلمة أو لفظة بعينها بل هو نتاج اختيار الفرد لنسق من أنساق النظم التي تتيحها بنية اللغة النحوية. فهذه الأنساق هي التي يبنّي على اختيارها التفاضل بين مستويات الكلام (أو النتاج اللغوي مكتوباً أو ملفوظاً) بين بليغ وغير بليغ. وهي أنساق يتوخاها المتكلم (أو الكاتب) واعياً لقصده

إقامة علاقات بين الألفاظ يتوخى منها معاني النحو وهذا هو النظم. «فليس النظم شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم».⁽³⁷⁾

ومعاني النحو هذه ليست القوانين العامة لصوغ الجمل. فالقوانين العامة التي تحدد البنية النحوية للجمل هي مما تشترك به الجماعة اللغوية - أو ما يتصف به المتكلم / المستمع المثالي - بدون تفاضل بين الواحد والآخر. وهذه القوانين العامة هي موضوع اهتمام ودرس جومسكي وهي التي ينصب عليها كلامه. ويبدو أن الجرجاني يفرق بين النظم (توخي الفرد المبدع لمعاني النحو في الاستخدام اللغوي) وبين أصول النحو وأحكامه وقوانينه العامة. فهو يتحدث عن هذه الأخيرة في مدخل كتابه «دلائل الإعجاز» بكلامه عن تعليق أجزاء الجملة الواحد منها بالآخر.⁽³⁸⁾ ولا أظنه في هذا الخصوص يختلف عن المخطط النحوي الذي يرسمه النحاة العرب لبنية الجملة النحوية وحدودها والسّمات النحوية التي درسوها والمبادئ أو الافتراضات النظرية التي أثبتوها.

غير أن هذا الأمر - أي القوانين العامة التي تحكم البنية النحوية - ليس موضع اهتمام الجرجاني، فالرجل معني

بالأسلوب من حيث كونه مدار البلاغة. إذ يكمن وراء النظم معاني النحو وهذه تفرق نظماً عن نظم. فلكل واحد منها وظيفة يختص بها - وهو ما يطلق عليه الجرجاني «معاني النحو». إن كلام الجرجاني عن النظم وعن أنه سبب مزية كلام عن كلام وفضل شعر على شعر يوضح أنه يتحدث عن مقدرة فردية هي غير القابلية (الكفاية) اللغوية التي يتحدث عنها جومسكي. فهذه تساوي - بالنسبة لجومسكي - معرفة المتكلم / السامع المثالي للقوانين والمواضع اللغوية ومنها القوانين النحوية. والمقدرة التي يتحدث عنها الجرجاني هي مقدرة يختلف فيها أفراد الجماعة بحيث يتفاضلون فيما بينهم بمقدار ما يمتلكون منها. ومن هذا جاء إعجاز القرآن الكريم في أنه بلغ درجة من هذه المقدرة يعجز المتكلمون عن بلوغها.

ويتعلق بهذا مسألة العقلانية التي أوردت كوجه للتشابه بين مقولات جومسكي ومقولات الجرجاني. فجومسكي يعد اللغة ظاهرة ذهنية والقابلية اللغوية هي المعرفة بهذا النظام الذهني ومن هنا جاء استخدامها وتلقيها نشاطاً أو فعالية ذهنية في جوهرها. ويبدو أن هذا هو الذي وضع جومسكي

والجرجاني موضع المقارنة والشبه. ولكننا بتقصي مقولات الاثنين نجد أن النشاط العقلي الذي يتحدث عنه جومسكي ليس أكثر من هذه المعرفة بقواعد اللغة والتي يمتلكها المتكلم الاصيل كسليقة طبع عليها. أما الجرجاني فكلامه عن النشاط عقلي واع للفرد المبدع يختار عبره هذا الأسلوب أو ذاك متوخياً فيه - كما أسلفنا - معاني معينة للنحو.

ولعل كلمة «توليد» قد زادت في تعقيد الأمر فقد فهم البعض أن التوليد - وهو مصطلح من مصطلحات مدرسة القواعد التوليديّة - يعني إنشاء أنساق متنوعة من مجموعة ألفاظ محددة أو من بنية عميقة تعمل كأصل لتلك الجمل التي تكون فروعاً لها. وهذا الفهم الخاطيء للتوليد قد يوحي (أو أنه أوحى) بشبه بين جومسكي والجرجاني.⁽³⁹⁾ فالجرجاني يتحدث أيضاً عن الأساليب والأنساق المختلفة التي يمكن ردها إلى أصل واحد، والتي تؤدي معاني مختلفة تختلف بين النسق والنسق. ومن نافلة القول تكرار الحديث أن التوليد لم يقدمه جومسكي بهذا المعنى أبداً ولم يقصد به هذا الاشتقاق لجمله من جملة أخرى. ففي الصفحات الأولى من كتابه «جوانب من نظرية النحو» يعرف جومسكي

الفعل «يولد» بأنه يعني إعطاء وصف بنيوي واضح وجلي للجمله لا يدع مجالاً للحدس والظن.⁽⁴⁰⁾ فإذا حسب نظام من القواعد حساب كل جمل اللغة سيقال عنه أنه ولدها. وعلى هذا فالتوليد هنا غير «الإنتاج» إلا إذا أخذنا «ينتج» بمعنى أوسع كثيراً من المعتاد بحيث يعني «تصف» أو «تعطي» والقواعد تكون توليدية حين تكون واضحة وجلية ومفصلة.⁽⁴¹⁾ ولعل الذين فهموا التوليد بهذا المعنى الخاطيء خلطوا بينه وبين الخلق والاشتقاق. فجومسكي يتحدث عن الجانب النحوي من القواعد على أساس أنه الجانب الخلاق. فقوانين القواعد النحوية هي التي تولد جملاً مع أوصافها البنيوية. وليلاحظ القارئ الفرق بين «القوانين التي تولد» والجمل الأصلية التي «تولد جملاً أخرى» على حد قول أولئك الباحثين.

ومن ناحية أخرى فإن الأنساق المتنوعة التي تقدم أمثلة على طرق النظم المتعددة التي تنتمي إلى أصل واحد (كما يمثلها عبد المطلب محمود وجعفر دك الباب) والتي هي مدار بحث الجرجاني لا يمكن النظر إليها - وفقاً للمنهج التوليدي - على أساس أنها تمثل بالضرورة البنى السطحية الناتجة عن بنية عميقة واحدة

عبر قوانين التحويل.⁽⁴²⁾ فصلة جملة بأخرى (أو بعبارة أصح صلة بنية جملة بأخرى عن طريق التحويلات) تقتضيها وتحكمها وجود تبريرات نحوية بحته لقيام مثل هذه الصلة. وعلى هذا فإننا - وعلى افتراض أن نسق العناصر في جملة «انطلق زيد» يمثل نسقها في بنية هذه الجملة العميقة، لا يحق لنا الزعم بأن جملة «زيد منطلق» مشتقة من نفس البنية العميقة التي اشتقت «انطلق زيد» منها ما لم يدعم ذلك تبريرات نحوية تطرد مع الرؤية العامة للبنية النحوية للجملة العربية ومع الفرضيات المنهجية التي تفترض لتفسير الظواهر النحوية - مما فصلناه آنفاً. والذي يبدو هو أن تشابه هذه الجمل في معناها هو الذي دعا إلى تصور اشتقاقها من بنية عميقة واحدة على اعتبار أن البنية العميقة تمثل المعنى. وهنا تجدر الإشارة إلى مسألة مهمة تتلخص فيما يلي. أن اشتراك جملتين في بنية نحوية عميقة واحدة يقتضي (وفقاً للنظرة السائدة في الستينات) أن يكون لهما معنى واحد، غير أن هذا لا يقتضي أن يكون لكل جملتين لهما معنى واحد بنية نحوية عميقة واحدة. إن هذا يعطينا صورة واضحة عن مدى التوسع في فهم آراء

جومسكي والجرجاني ويدل ذلك على مدى الاختلاف الحقيقي بين مقولاتهما. وقضية التوليد تقودنا إلى وجه آخر من أوجه الشبه المزعوم بين جومسكي والجرجاني: تلك هي حقيقة القواعد النفسية. فجومسكي لم يقدم نظامه القواعدي على أساس أن له حقيقة نفسية. فطريقة عمل القواعد مثلاً لم ينسب إليها أية مطابقة مسبقة مع العمليات الذهنية التي يتضمنها الاستخدام اللغوي قولاً وإدراكاً. ويكرر جومسكي في أكثر من موضع أن صحة هذه القوانين لا تنبع من حقيقتها النفسية (ولو أن ذلك من المرغوب به بالتأكيد) ومماثلتها لما يجري في الذهن فعلاً، بل من كونها تحسب حساباً دقيقاً وصحيحاً للظاهرة اللغوية. والسعي وراء إثبات الحقيقة النفسية للقوانين التي يقترحها اللغوي لا يزال يشكل جزءاً كبيراً من البحث اللغوي وهو افتراض تجريبي (أي أنه يخضع في صحته أو زيفه للتجربة). فالحقيقة النفسية للتحليلات والافتراضات ستظل مداراً للبحث سعياً وراء فهم أكبر للأساس الحيوي (البايولوجي) لطبيعة اللغة البشرية وجوهرها. أما الجرجاني المعني أساساً بالنتاج اللغوي الذي يمتاز به فرد دون آخر -

أي الإبداع - وليس المعرفة اللغوية عند الإنسان عموماً - وهذا كل الاختلاف الجوهرى فله موقف آخر من الحقيقة النفسية للنتاج اللغوي. فهو يرى أن الجمل ترتب عناصرها حسب ترتب المعاني في نفس القائل. يقول في دلائل الإعجاز «إن الأمر على ما قلناه من أن اللفظ تبع المعنى في النظم وإن الكلم ترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس».⁽⁴³⁾ وهكذا «فإذا وجب المعنى أن يكون أولاً في النفس وجب اللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق».⁽⁴⁴⁾ إن هذا القول، حين يؤخذ بكل ما يعنيه، يعني أولاً نفياً قاطعاً لبنية نحوية ذات حدود واضحة تفرضها الانتظامات النحوية لكل لغة، أو نفياً لوجود مستقل لمثل هذه الانتظامات - أو لطرق تعليق الكلمات بعضها ببعض ونظمها في الجملة العربية. وهي بالتالي نفي لوجود النظام اللغوي المستقل. وهذا القول يعني أيضاً أنه لن يكون هناك فرق بين البنية النحوية للجمل في لغة ما عنها في لغة أخرى. فما دام نسق الكلمات ينتج عن ترتب معانيها في النفس إذن ستصبح بنى الجمل النحوية واحدة في كل لغات العالم. وليس لنا أن نناقش هذا الادعاء هنا فهو مسألة تجريبية واحسب أنه

يوجب التآني وسر غور ما يعنيه بالتحديد قبل تبنيه دليلاً على تلاقي فكري الجرجاني وجومسكي.⁽⁴⁵⁾ فهما يتكلمان عن أمرين مختلفين لأنهما أصلاً يعالجان موضوعين مختلفين.

خاتمة :

إن الذي نخلص إليه مما تقدم هو أنه وبالقدر الذي يمكن به استخلاص مشترك بين منهجين للبحث اللغوي يفصل بينهما ما ذكرناه من بعد زمني ومكاني وحضاري. فإن المنهجين اللذين كانا موضع دراساتنا (وهما المنهج التوليدي التحويلي (متمثلاً بكتابات جومسكي) ومنهج (الدرس النحوي العربي) يشتركان في سمتين أساسيتين للبناء النحوي. فكلاهما يفترض مستويين للبنية النحوية للجمل وكلاهما يؤسس هذا الافتراض على حجج نحوية مستمدة من الحدود البنيوية على التركيب الجملي وعلى الافتراضات النظرية التي وضعت لتفسير الظاهرة النحوية. غير أن هذا لايجوز أن يعني بحال أنهما يشتركان بأكثر من هذا من أدوات البحث وتفاصيله. فقد أسس جومسكي رؤيته للنحو على أسس رياضية، وتقدم افتراضاته وصفا قواعديا بأدوات

معنيين بقضية واحدة بل كان كل منهما
معنياً بأمر لا يعنى الآخر به. ففي حين
لم يعن الجرجاني بالقوانين النحوية
العامة التي تكون المعرفة اللغوية عموماً -
وهو مجال بحث واستقصاء جومسكي -
نجد أن هذا قد تجنب الحديث عن النتائج
اللغوية وما يدخل فيه من عوامل
ومؤثرات وهو ما كان بعضه مدار بحث
الجرجاني الذي كان همه الأكبر وضع
حدود واضحة للإبداع.

رياضية. بل أن النموذج الرياضي كان
بالنسبة له مثالا يحتذى به في تحديد
افتراضاته. وهذا لم يكن من سمات منهج
الدرس النحوي العربي. ولابد من الإشارة
هنا إلى أن هذا لا يعني أن المنهج الأول
أكثر منطقية من المنهج الثاني - وليس في
هذا مما يؤخذ على النحاة العرب.

ونستخلص أيضاً أوجه الاختلاف
الحقيقية بين مقولات جومسكي ومقولات
الجرجاني فيما اشتبه بأنهما يتماثلان
فيه. إذ أنهما - كما قلنا - لم يكونا

الهوامش

(1) انظر : Chomsky, N. *Aspects of the Theory of Syntax*, (Cambridge, Mass. MIT Press, 1965). وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية. ونشرته جامعة البصرة 1985.

(2) Chomsky, N. *Syntactic Structures*, (The Hague : Mouton, 1957).

وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية ونشرته مديرية الشؤون الثقافية في العراق 1987.
(3) في هذا العرض نستند إلى الفصل الأول من كتاب جومسكي جوانب من نظرية النحو Chomsky, *Aspects*, ch.1 وهو يمثل المنطلقات الأساسية للنظرية التي تقوم عليها هذه المدرسة والتي لم تتعرض للتغيير مع تطورها. وهكذا فإننا نراها تتكرر في كتابات جومسكي التالية.

(4) لتفصيل هذا ينظر في Chomsky, *Essays on Form and Interpretation* (New York : North Holland, 1977); Chomsky, *Rules and Representations*, (New York : Columbia Univ. Press, 1980).

(5) ينظر في كتاب Chomsky, *Reflections on language*, (New York : Pantheon, 1975).

(6) Chomsky, *Language and Problems of Knowledge*, (Cambridge, Mass. : MIT Press, 1988) p. 25.

(7) Chomsky, *Syntactic Structures*, Ch. 4.

(8) Chomsky, *Aspects*, Ch. 2.

(9) Chomsky, "Deep Structure, Surface Structure, and Semantic interpretation", In *Semantics : An Interdisciplinary Reader*, D. Steinberg and L. Jakobovits (eds.), (Cambridge : CUP, 1971).

(10) لغرض الاطلاع على تفصيل النقاش الذي دار حول الدلالة والنحو والعلاقة بينهما ليراجع القارئ الكريم Newmeyer, F. *Linguistic Theory in America*, (New York : Academic Press, 1980).

(11) Chomsky, Deep Structure,

(12) لينظر القارئ الكريم في الحجة الأساسية التي قدمت في الفصل الرابع من كتاب جومسكي «البنى النحوية» وهي حركة الأفعال المساعدة إلى بداية الجملة في الجمل الاستفهامية في اللغة الإنكليزية.

(13) Chomsky, Rules and Representations, pp. 143-151.

حيث هناك تفصيلات عن سبب إيلاء هذا المستوى الجديد دوره وهو اعتماد التأويل الدلالي عليه بدلا من اعتماده على البنية العميقة للجملة.

(14) المصدر السابق p. 151

(15) سيويو، الكتاب بتحقيق عبد السلام هارون (بيروت : عالم الكتب) الجزء الأول ص 34.

(16) المصدر السابق ج 1، ص 34.

(17) ابن هشام، مغني اللبيب عن كلام الأعراب، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ج 2، ص 376

(18) الرضي الاسترآبادي، شرح الرضي على الكافية (بنغازي : منشورات جامعة بنغازي 1973) ج 1، ص 190 - 191.

(19) ابن هشام، المصدر السابق، ج 2 ص 605.

(20) المصدر السابق، ج 2، ص 608.

(21) المصدر السابق، ج 2 ص 610.

(22) سيويو، المصدر السابق، ج 1، ص 81.

(23) ابن هشام، المصدر السابق، ج 2، ص 447.

(24) المصدر السابق، ج 2، ص 613.

(25) المصدر السابق، ج 2، ص 649 - 650.

(26) ابن جني، الخصائص، بتحقيق محمد علي النجار (القاهرة : دار الكتب المصرية 1952) ج 3 ص 261

(27) ابن هشام، المصدر السابق، ج 2، ص 623.

(28) المصدر السابق، ج 2 ص 649.

(29) من قبيل هذا قول محمد رضا مبارك في معرض حديثه عن أوجه الحداثة في مقولات الجرجاني البلاغية وصلتها الدقيقة بمقولات جومسكي ضمن المنهج التوليدي: «علمنا أن جومسكي قد درس الجرجاني دراسة وافية واطلع على نظرية النظم والتعليق اطلاعا كافيا». ينظر القارئ الكريم هذه السطور في محمد مبارك، «ملاح لغوية تحويلية عند العرب». آفاق عربية العدد الأول. السنة الرابعة عشرة. كانون الثاني 1989، ص 118 - 120.

(30) نضرب للقارئ أمثلة عليها في الدراسات والمقالات التالية:

أ. نهاد الموسى، «نظرية النحو العربي». (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1980).

ب. عبده الراجحي، «النحو العربي والدرس الحديث». (بيروت : دار النهضة العربية 1979).

ج. خليل عمارة «البنية التحتية بين عبد القاهر الجرجاني وجومسكي». الأعلام، العدد التاسع 1983.

د. محمد رضا مبارك، ملاح لغوية تحويلية...

هـ. محمد رضا مبارك، «نظرة مقارنة في الإنجاز اللساني العربي». الأعلام. العدد التاسع. 1989، ص 130 - 131.

(31) انظر عمارة، المصدر السابق ص 91. ومن قبيل التوسع الأكبر أن يستخدم د. عمارة مصطلح «المعنى العميق» ليعني به البنية العميقة ولو أنه لا يوضح ما يقصده بهذا المصطلح ولا يقابله «بمعنى غير عميق» أو يحدد ما يقصد بالعمق في المعنى. وبدون هذه فإن استخدام مثل هذه التعبيرات غير المحددة مسبقا لا يمكن أن يحمل محمل الجد.

(32) عمارة. المصدر السابق ص 91. حيث يحيلنا إلى صفحات من كتاب جومسكي «جوانب من نظرية النحو» لا نجد فيها ما يتحدث عنه الكاتب. فلعلة قد توسع في فهم ما أراده جومسكي. وهذا هو موضع الخل وهو ما نحن بصدد.

(33) الراجحي، المصدر السابق ص 115.

(34) محمد علي الحسيني، «لغة الفن وفن اللغة في ضوء نظرية جومسكي وعلم اللغة الحديث». مجلة فنون، العدد 142 (1981).

- (35) انظر دك الباب، المصدر السابق، وعمايه المصدر السابق، ومقالي محمد رضا مبارك الماري الذكر.
- (36) انظر محمد عبد المطلب، «النحو بين عبد القاهر وجومسكي». مجلة فصول. العدد الأول المجلد الخامس، 1984.
- (37) الجرجاني، المصدر السابق، ص 404
- (38) الجرجاني، «مدخل في دلائل الإعجاز». ويجد القارئ مناقشة مفصلة لهذا الفرق في مقالة نصر أبو زيد «مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني». مجلة فصول. العدد الأول، المجلد الخامس، 1984.
- (39) عمارة. المصدر السابق.
- (40) Chomsky; *Aspects*; Ch.1
- (41) المصدر السابق، ويكرر جومسكي هذا التصور في كتاباته التي تلت ذلك الكتاب، على سبيل المثال. Chomsky; *Rules and Representations*, p. 220
- (42) لابد من الإشارة هنا مرة أخرى إلى أن التحويلات لا تختص بتغيير نسق عناصر الجملة فحسب بل أنها تمثل كل التغييرات النحوية التي يفترض أنها تطرأ على بنية الجملة لتصل بها إلى بنيتها السطحية. والقارئ لابد مطلع على طبيعة هذه التحويلات وعملها. ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً أن جومسكي يفرق بين التحويلات النحوية التي تجري على بنية الجملة من نقل الاسم أو نقل عبارة الاستفهام وبين تحويلات الحذف. وبين هذه كلها وبين التحويلات الأسلوبية التي تغير من نسق العناصر فيها على أساس أن هذه الأخيرة لا تتقيد بالقيود البنوية التي تحكم شكل وحدود التحويلات. أما الأولى فهي التي يطلق عليها اسم التحويلات القواعدية فهو يقول: «إن قوانين تغيير النسق الأسلوبية تختلف تماماً عن التحويلات القواعدية التي هي في جوهر نظام القواعد. ويمكن الاحتجاج أن الأولى ليست قوانين قواعدية بل هي أقرب ما تكون إلى قوانين آراء». Chomsky; *Aspects*; p. 127.
- وفي كتاباته الأخيرة يفصل بين التحويلات الأسلوبية وغيرها انظر:
- Chomsky; *Conditions on Rules of Grammar*; Linguistic Analysis 2: pp. 303-351.
- (43) الجرجاني، المصدر السابق ص 45
- (44) المصدر السابق ص 43.
- (45) لينظر القارئ الكريم في دراسات عمايه ودك الباب ومقالات مبارك حيث يجد أن هذه النقطة تتخذ وجهاً من أوجه التشابه.